القصص

راعيـــة الغنم

للآنسة جميلة العلايلي

هناك فى أعماق الصحراء النائية اتخذت راعية الغنم مأواها ؛ وعند شط البحر الزاخر بأمواج الأزل استقر بها المقام ، حيث تختلط أضواء السماء بظلال الأجواء ، ويبدو الفضاء كأنه مرآة لصورة اللانهاية

فى هذه الدنيا المجهولة اتخذت الراعية سكنها أو معبدها كما نظن وهى لا تدرى كيف استطاعت أن تعبر محيط الحياة المحدود لتعيش فى كنف الوحشة الهائلة التى لاحد لها ، وكيف تمكنت من تحطيم التقاليد المرعية لتقيم لنفسها حياة لا وزن لها ولا قيمة فى نظر المجتمع الانسانى

كذلك لا تدرى كيف تمكنت من مغالبة رغبات الشباب وأهواء الصبا ونزعت راضية إلى حياة التقشف والحرمان

وتحار أيضاً فى تفهم حياتها بقدر حيرتها من خضوعها لقوة قاهرة مجهولة ساقتها دون وعى منها إلى هذه الحياة الجرداء

وهى تذكر ماضيها القريب بما يحمله من نعم الحياة ومباهج الترف والملذات وأطايب الوجود كأنه حلم مر بها لحظات من الزمن الحالم ، ولكنها لا تذكره بحنين ولا تتوق إليه ولا تتمناه ، وهى تتأمل نفسها فى حاضرها فيحلو لها أن تشعر بقدرتها التى حلتها — وهى لم تتعد بعد العشرين من عمرها — إلى اجتياز عقبات الحياة ، وقد عبرت محيط الوجود فى غير خوف ، وحطمت تقاليد المجتمع الشامخة فى غير لين . . .

إنها تضحية هائلة منها بلا ريب ، إذ كيف يمكن لانسانة رقيقة ناعمة شديدة الحساسية أن تعيش فى دنيا موحشة مليئة بالمخاوف والأوهام ؛ إنها تشعر بذلك ، ولكنها تعرف أيضاً أن الوحشة الهائلة والخوف المروع والسكون الرهيب أهون من أباطيل المدنية وتهاويل الجوع ومساوئ البشر ، وأقل خطراً من عن التقاليد وتعسف البيئة الحاكمة ! ! !

لذلك ارتضت حياة الحرمان قانعة ؛ ومع أن ليل الصحراء المروع كان يملأ جوانب نفسها رهبة ، فانها كانت تقتل الخوف بأحلامها السامحة . . .

كانت تتخيل دائماً أن الله معها ، وأن ذلك الشروق البهيج كلمة الأمن تنطق بها شفتا الأزل ، وأن مظهر الغروب كلمة العزاء ترسم على صفحة السماء لتوحى إليها أحلام الأمن والطمأنينة والصفاء ! ! !

كانت تشعر أن قلبها عامر بالحب إلى درجة يسع معها ذلك الخلاء المطلق لو ضمت الخلاء بين جانحتيها ؛ وعندما تواتيها أخيلة السماء تتأمل السكون فى خشوع فيرتد اليها الأمن وتعاودها الطمأنينة ، ويبعث الله إليها ملائكة الرحمة فتنام نوماً هادئاً لا تشوبه مرارة القلق ولا الفزع حتى يقبل الصبح فاها بمنقار طير جميل فتستيقظ وهى على يقين أن ذلك الطير بعثه الله ليحمل إليها رسالة رضاء

على أن حياتها كانت لا تخلو من العمل الجدى فى نهارها . كانت ترعى أغنامها وتغزل أصوافها وتستخرج الزبد والجبن من ألبانها ولا تنتفع بذلك لنفسها بل كانت تهبه راضية أبناء السبيل وهم فى ناظريها اليتامى والمساكين والمحرومون

هؤلاء هم الذين يعرفون الله ويحبونه حباً جماً ، ومع ذلك تحرمهم الحياة من نعمه وهى واحدة منهم — كما تعتقد — ولكنها الآن تملك ما لا يملكون فلم لا تمنحهم مما وهبها الله الجليل العظيم ؟

إنها تشعر أنه وهبها ذلك من أجلهم وعليها أن ترد الأمانة لهم ، ولعل هذا الاحساس الذى ولد معها وظل ينمو ويترعرع حتى اشتد أزره وملك عليها قلبها وعقلها هو الذى دفعها إلى ترك

حياة القصور والفرار من بيئتها سراً لتعيش هنا فى كنف هاته الوحشة أليفة وحيدة . بنت عشها من الأغصان وزينته بالزهر ، وراحت تقتات النبت وتروى عطشها من ماء النهر ، وباتت تحس أن كل ما يحيط بها حانٍ عليها ، وتحس بنسمات العطف ترف عليها من كل جانب ، فتشعر أن قلبها يحبه الهائل أسمى من الوجود ، أو لعله صورة لذلك الذى يسمونه الخلود . ويخيل إليها أنها تملك الحياة بأسرها لأنها تتنفس فى طلاقة ، وتعدو فى غير قيد ، وتخلع أرديتها دون أن تخشى النظرات الفاسقة ، وتسير كما يحلو لها فلا يلاحقها أصحاب القلوب المريضة

* * *

مرت بها الأيام وهى لا تعرف لأيامها حساباً ، بل تشعر أنها كا ولدتها أمها خالية الذهن إلا من الإيمان الأكيد حتى بلغ بها الخيال يوماً فحسبت أنها تعيش فى الفردوس الذى وعد الله به المخلصين من عباده ، حتى رأت يوما إنسياً يروح ويجىء من بعيد فأيقنت أنها ما زالت على أرض الحياة تعيش

وتعلق نظرها بذلك الشبح الذى تراءى لها وهو يتمشى فى سكون ، وينقل خطاه فى هوادة ، وفى يده كتاب لا يقرأ منه إلا لماما ليتأمل مظاهر الطبيعة الفاتنة البادية فى الصحراء ؛ وظل كذلك حتى لمح هن بعد طيف الراعية الحانية على الغنم تطعمها وتسقيها ، فتقــدم نحوها عامداً ، وراح يتأملها فى عجب وهو يتوجس خيفة من وحشة المكان الذى يأويها ؛ وقد عجب لجرأتها ، وظن أنها لابد أن تكون همجية مستأنسة أو أنسية متوحشة — ولكن مظهرها الملائكى طبع فى ذهنه فاكتسح أمامه هذه الخواطر وراح يرثى لحالها ويفكر فى أمرها ، ووجد نفسه يتقدم اليها من حيث لا يدرى فتوقف عن السير وأسرع الخطى بعيداً عنها

فلقــد ما كان يؤلمه أن يخاطب امرأة مجهولة ، وكذلك يخجله أن يواجه امرأة . ولمــا ابتعد عنها وشعر بطول المسافة بينهما — ندم على تسرعه وقال لنفسه : وما ضرنى لو حادثتها ؟ ألا يحتمل أن تكون هى صحيفة مجلوة من ذلك الكتاب الغامض الذى يحتاج لقاموس ؟ ثم ارتد اليه اعتــدال رجولته فاطمأن الى تصرفه

أما هى فقد راحت تتأمله فى حــذر وتعجب بدورها ! فلأول مرة فى تاريخ وجودها فى الصحراء ترى إنسيا ، وقد كانت سعيدة بوحدتها ، فأى قدر قذف اليها اليوم بذلك الرجل المجهول . فلـكها خوف ورعب ، وسادها قلق واضطراب ، وراحت تنظر للخلاء كأنه مغارة مخيفة تكاد تبتلعها ، ثم تنزل عليها خاطر غريب فهدأت أعصابها فاطمأن قلبها وقالت لنفسها : عله عابر سبيل !! ثم استعادت بخيالها صورته ، فأدركت أنه شاب وسيم الطلعة عليه سيماء الشباب الثرى ، وتأملت فى كتابه يدل على أنه من طلاب العلم أو المتأدبين ، من عسى أن يكون ؟

عله يملك هذه البقاع فجاء اليوم يزورها — ولكن لو كان لسألنى بأى حق اتخذت هذه البقعة ؟ ثم إنى لا أعرف إنساناً متمدينا يبلغ به جنون الزهد أو التقشف الى حــد يدفع به الى شراء أرض قاحــلة لا فائدة منها . والناس كلهم يجرون وراء الفائدة المــادية

بهذه الخواطر شغلت نفسها طوال الليل حتى طلع الصباح فمر بها وقد تأملها فى سكون ، بينما هى تتأمله فى خفر ، وراح يمر عليها كل يوم ملقياً عليها نظرة عابرة وهى تتعمد أن تبدو غير آبهة ولا حافلة ، حتى اشتد ظمؤه يوماً ، فاقترب منها وعليه طابع الصلف والكبرياء وطلب كوب ماء ، فقدمت له إناء به ماء وهى تبتسم وتقول : يؤسفنى أن المــاء غير مكرر . . . فذق مياه الزاهدين (قالت ذلك بلهجة لا تخلو من عطف خفىّ ، ولطف ساذج ، وعذوبة محببة ، وتحفظ رزين ، فتأفف وأبى فى صمت قالت : إذن تفضل كوبة من اللبن ؟

فهز رأسه موافقاً وشرب ثم مد يده يبمض دريهمات اليها فامتنعت فى إباء وقالت : المال لطلاب الحياة ولست منهم ! فشكرها فى إيجاز وكبرياء ، وتركها فى موقفها وسار فى طريقه فى هدوء وراحت تترقب مروره وقد هيأت له كوب اللبن فى كل صباح فلم يحضر ، ومرت الأيام وقد ازدادت لهفتها

لم ترغب فيه كرجل يحادثها أو يجالسها ، ولكنها كانت تود أن تراه ثم تنمض عينيها الى الأبد ، ولم تستطع تفسير شعورها الغامض الذى ملكها . لقد باتت تحلم به فى الليل وتترقبــه فى النهار ، وجاءها على غير موعد يطلب لبناً . . . ولمــا شرب ظل

فى موقفه لا يتحرك ولا يتكلم وهى فى موقفها توارى اضطرابها بالاشتغال فى غزلهـا وأخيراً قال بلهجة التهكم المر : ما الذى جاء بك الى هذه البقاع الجرداء وأنت صبية حسناء ؟

فالت برأسهـا إلى الخلف وقد بانت أشد فتنة وسحراً ثم قالت فى هدوء ودعة :

ما الذى تجنيه من حياة المدنية وضجيجها ! ما الذى تجنيه من أوهام الحياة ؟

لا شىء بالتأكيد !! ...

إذن خير لنا أن نفكر على قدر عقولنا فى حياة تكفل لنا بقدر المستطاع الأمن والسلام

فضحك الشاب متهكما وقال : وإذا كان جميع الناس على هذا الطراز (طرازك التقشفى) فما الذى تجنيه الانسانية أيضاً ؟

قالت : على الأقل تخلو من التنابذ والتنافر فترتدع الخلائق عن الحرب والتقاتل

فازداد تهكما وقال :

وهل تظنين أن امتناعك عن مشاطرة الناس حياتهم العامة يشوه من جلال الحياة ؟

قالت : لا ، ولكن يطمئننى أنا ويسعدنى

قال : إذن فأنت تلبسين مسوح الراهبة إمعاناً فى الأنانية ؟

قالت : وهل يمكن لانسان أن يتحرر من الأنانية ؟ . . .

ولكن يمكن تحديد الأنانيـة وتوجيهها إلى طريق مستقيم ، فهناك فارق كبير بين إنسان يقتـل إنساناً ليسعد نفسه ، وبين آخر يعرف كيف يمتع نفسه فى حدود الخير والفضيلة دون أن يلجأ إلى الشر أو الرذيلة

فهز رأسـه وهو يتمتم ويقول : هيه ؟؟... وأخيراً قالت : سأعيش هنا حتى نهاية أيامى ، فقال : ألا تشعرين بوحشة الوحدة ؟

قالت : قلبى عامر

قال : عن ؟

قالت بنغمة حارة : بالحب !

فعاد إلى تهكمه ضاحكا وقال : وأين ذلك الحبيب ؟

قالت : إنه معى

قال : ولكنى لم أره ، قد جئت هنا كثيرا

قالت : يخيل إلىّ أنك تتغابى لتستدرجنى

فتلفت الشاب يمنـة ويسرة كأنه يفتش عن ذلك الحبيب ، ولكنها لم تدعه فى حيرته وقالت : أيمكنك أن ترى الله ؟ من أجل الله جئت هنا ، ومن أجله أعيش ، ومن أجله أحب العالم كله !

قال : قد يكون ذلك صحيحاً ، ولكن لا بد لك من تحـديد هذا الحب وتركيزه

فلم تفهم ما يعنيه وقالت : إننى أحب كل كائن لأننى أرى فيه سمة من سمات العظمة الالـهية ، فأنا أحب الكائنات كلها لأنها تكون فى مجموعها القوة الجليلة الهائلة والجمال اللامحدود ، أعنى أحب صورة الله منوعة الرسوم

كانت تتحدث وكل خالجة فيها تعبر بوضوح عن صدق إيمانها ، وكان فى التماع عينيها واختلاج شفتيها معنى صريح لعواطفها الصادقة

فغمغم الشاب بلهجة المريب : لقد دفعك الحرمان إلى ذلك

فتندت عيناها وتمتمت بصوت خفيض : أجل . هو الحرمان الذى قربنى إلى الله ، وهو الذى فتح قلبى للحب السامى ، وهو الذى أودع فى قلبى عاطفة هائلة هى على قدر غموضها عميقة عميقة

وأحس الشاب أن كلماتهـا تنزلت على قلبه فتمنى لو يعانق جسمها اللدن ليبثها الحرارة التى فى كيانه ، ولكن بقية من كبريائه دفعته للصمت ، وكان شعورها قد فاض بها فازداد اضطرابها

ولـما أحس بحنينه يشتد خاف أن يفتضح أمره فانسحب وقد حياها على عجل وانصرف

* * *

ومرت بها الأيام وهى تتجنبـه بقدر ما تتمناه ، فقـد أدركت من المرات التى لقيته فيها أن فى التماع عينيه حكاية ، وعلى شفتيه طابع الرغبة الجامحة ؛ ولعله ظن ذلك التجنب زهداً فاحترم مشيئتها وراح يمر بها هادئاً ويعرض عنها صامتاً

وقد فسرت هى تصرفه بالخشونة والجمود فما كنت أن تنظر اليه من بعيد عند ما يجىء ويجلس هناك على صخرة وسط الرمال كأنه يحدثها بسرائر نفسه ليرفه عن صدره عبء خواطره الثقيل

وفى أمسية قمرية ساجية أحست بشعور قوى جارف يدفعها اليه . . . لتراه ثم تعود ، ولـما جاءته وكان قد أخذ مجلسه على الصخرة ، نظر اليها نظرة خاطفة ، ثم أشار اليها بيده لتجلس

فامتنعت واتجهت خلفه لتعود ، فانتصب فى هدوء وقال لها فى رفق : إجلسى يا طيفى الهارب ... فامتنعت ...

فعاد يقول بصوت حزين : أنا مريض

فتمتمت : لا أظن

قال : صدقينى

قالت : لست مريضاً ... ولكنك حالم — أجل — إن ما بك هو حلم عميق وهو الذى أورثك هذا الجمود

فارتاع ثم قال : أجامد أنا ؟

قالت : أو تشك ؟

قال : أجل

قالت : ثق

قال : لا أظنه جمود عاطفة ولكنه رهبة وخوف

قالت : ممن تخاف ؟

قال : منك ! ! !

قالت : أيمكن أن يخاف الرجل القوى امرأة ضعيفة ؟

قال : آه من المرأة : فى عينيها بريق الأمل وعلى شفتيها طابع الألم ، ومن هذا الالتياع تتدفق القسوة فى شبه زلال الرحمة

قالت : إن الله يحيط المرأة بسياج الغموض وهو ما يخيف الرجل ، وما يسميه بالقسوة ليجعل لها حصانة طبيعية وسلاحا لا يؤذى . فتكلف ابتسامة شاحبة وقال : وبرغم ذلك فألف أف من سلاح عينيك

فضحكت فى سذاجة وقالت : فى عينيك حكاية وفى عينى سلاح — هه — يا للفارق الهائل !

فتذاكر وقال :

فى عينى حكاية ! ! عجبا ! !

أتعرف الراعية التكهن ؟

قالت : أجل

قال : إذن نبئينى يا كاهنتى ؟

فلزمت الصمت طويلاً وهى تحدق فى عينيه ثم قالت : فى عينيك حكاية حلمك ! !

قال : يا لله ، وهل لحلمى حكاية ؟

وإذا كان هذا رأيك من عينى فما عساى أقوله فى عينيك

فقالت : بدون اكتراث :

قل ما بدا لك

فنظر إليها طويلاً ثم أرخى جفونه وراح يعبث بعصاه فى الرمل كأنه يصور خواطره بها ثم نظر إليها وقال :

فى عينيك عمق الأبد وسر الأزل

قالت : ثم

قال : لا شئ

قالت : فسر ما وراءها

قال : عسير على إدراك ما وراء الأبد وتفهم خفايا الأزل

قال ذلك وهو يتأهب للانصراف فتشبثت بردائه وقد نسيت حذرها وخوفها وقالت : ابق بجانبى ، ابق بجانبى ، لا تتركنى هكذا وشيكا

فتعمد عدم الاهتمام وحاول أن يخلص نفسه من بين يديها . ولما رفع وجهه إلى عينيها ولمح دموعها تخاذل وأخفق وأطرق رأسه فى استسلام وقد تجهم وجهه ولزم الصمت . وأخيراً غمغم بصوت خفيض : أتعنى ، فقبضت على يده وهى تقول : افتح عينيك ! ! ودعنى أتأمل فيهما طويلا

دعنى أتأمل فيهما حتى نهاية الوقت بل دعنى أتأمل فيهما حكاية قلبى !! وهنا تلاشى كبرياؤه وبدأت عواطفه تشيع فى عينيه وتتراءى كالظلال على شفتيه بسمة السخرية حتى امتدت الى قهقهة طويلة فاستفاق فوجدها بين يديه جثة هامدة

فنضحها بالماء حتى استفاقت ففتحت عينيها فى بطء وغمغمت : أما زلت هنا أيها القدر الجائر . ثم ابتسمت وقالت أترانا انتهينا ؟

قال : أى قوة هائلة قد قذفتك من أعماق الحياة لتأخذى مكانك فى قلبى ؟ فانتصبت وقد ملكها الفرح وقالت : إذن أنت لى وسوف تظل بجانبى إلى الأبد

وأحس فى أعماقه بسخرية القدر فتألم لها وعليها ، إذ أدرك خطورة تصرفه وأيقن أنه عاجز عن مكافأتها على حبها — انه مرغم على فراقها ، فللتقاليد حرمة يجب أن تصان ، ولبيئته تقاليد مرعية يجب أن تحترم ، ولوالده عليه حق الطاعة والخضوع — فتلطف بها وقال : قد أكون تطفلت عليك فمعذرة ، سأذكرك دائماً بالخير ، وإذا احتجت إلى معونة فأنا أقرب الناس إليك

فتألمت واحتجت فى عنف وحاولت أن تحتم عليه البقاء بجانبها لخانها النطق وقعد بها الحياء

ولم يترك لها مجالاً لاستعادة قواها . فحرك ساقيه ومضى عنها مهرولاً وتركها فى مكانها تتمتم :

أيمكن أن تقذفنى الحياة من أعماقها إلى شاطىء فيصدمنى القدر بصخرة الفناء

* * *

ومرت الأيام سراعا وهى تترقبه كل يوم وتسقط ورقة أحلامها من على شجرة أمانيها ذابلة صفراء وحاولت أن تبحث عنه هنا وهناك فلم تعثر على آثار خطاه

لقد مل الصحراء كما ملتها ، أو لعله تعمد تجنبها رحمة بها وخوفا عليها فانه كان على يقين من أنه أعجز من أن يحارب أوضاع المجتمع الصارمة ، وأضعف من أن يحطم التقاليد الفاشحة

ورأته فى منامها على سفر يشير إليها بيده من نافذة القطار فقامت مبكرة وقطعت الوهاد والنجاد حتى باتت محطة أول قرية تقرب من الصحراء لتتعزى برؤية المسافرين ، ومرت القطر تباعا وهى تتأمل الوجوه الغادية والرائحة ؛ (وأخيراً) لمحته من النافذة يرقبها فى حذر ويشير إليها بيده من نافذة القطار ، وسمعت بجانبها صوت رجل يقولون له (العمدة) يصيح : مع السلامة ! لا تتأخر فى الميعاد المحدد ! وقال له صاحبه لماذا ؟

فأجابه : يوم زفافه !

جميل العلايلي

الرســالة

تدخل عامها الخامس فى أول يناير ومعها :

الروايــة

وهى مجلة للقصص العالى والسمر الرفيع ؛ تصدرها ادارة الرسالة فى ثمانين صفحة

تعتمد فى الغالب على نقل ما راع وخلد من بدائع الأدب الغربى فى القصص على أوسع معانيه من الأقاصيص والروايات والرحلات والمذكرات والاعترافات والسير . وسيكون دستورها : الجمال فى الأسلوب ، والحسن فى الاختيار ، والنبل فى الغرض ؛ فترضى الذوق كما ترضى الرسالة العقل ، وترفع القصة كما ترفع الرسالة المقالة ، وتسجل أدب الغرب كما تسجل الرسالة أدب العرب

اشتراك الرواية المؤقت

تصدر الرواية مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه . لذلك سيكون بدل اشتراكها ثلاثين قرشاً فى مصر والسودان ، وخمسين قرشاً فى الخارج

اشتراك الرسالة المخفض

كل من يسدد اشتراك الرسالة (كاملاً) قبل انتهاء شهر يناير ترسل إليه الرواية مجانا ، وللمعلمين الالزاميين وطلاب العلم فوق ذلك أن يؤدوا الاشتراك على ستة أقساط متتابعة ، وأن يكون لهم الحق بعدها فى كتاب من مطبوعات (لجنة التأليف والترجمة والنشر) لا يقل عن عشرة قروش ولا يزيد على خمسة عشر ، (وأجرة البريد على المشترك) ، وستنشر الرسالة قائمة بالكتب المختارة

(تنبيه) . رسم البريد للخارج مضاعف على الرواية لكبر حجمها ، لذلك سيكون اشتراك الامتياز فى شهر يناير للبلاد العربية تسعين قرشاً بدل ثمانين